Türkiye Diyanet Vakfı
Kütüphanesi
İslâm Ansiklopedisi

نصرة مذاهب الزيدية

للصاحب بن عباد

٣٢٦-٣٨٥هـ

تحقيق

الدكتور ناجي حسن

الدار المتحدة للنشر

الطبعة الأولى
١٩٨١

جميع حقوق الطباعة والنشر والاقتباس
محفوظة

للدار المتحدة للنشر
للطباعة والنشر والتوزيع

٩٢ شارع البطريركية - بيروت - لبنان
ص.ب ٩٠٥٩/١١ - هاتف: ٢٣٩١٩٤ - ٢٥٩٥٢٠

المقدّمة

شغفتني وأنا أتطلع لعظماء القادة، شخصية الثائر الإمام زيد بن علي، أحد صانعي التاريخ، ورائد إحدى الثورات السياسية والدينية الكبرى في الإسلام، وباعث اتجاه سياسي وديني أثر تأثيراً واضحاً في مجريات الأحداث في عصره، ودفع عجلة انهيار الدولة الأموية إلى الأمام. فكان حرّياً بذلك البحث الذي استهدف إيضاح تلك الجوانب المشرقة للثورة والنتائج الواسعة المدى التي تمخضت عنها، والذي دعوناه بثورة زيد بن علي. إلا أن هذا سرعان ما جرني إلى السعي حثيثاً، من أجل نشر تلك الكنوز الثمينة للعقيدة الزيدية، حين بهرني ذلك الفكر النير، والأسلوب الإعتزالي الرفيع الذي اتخذه القوم وسيلة لتثبيت تلك العقيدة، والقابلية الفذة المنقطة القرين في الذود عنها، وترسيخ كيانها، هذا إذا أنها لم تجد من اعتنى بها، واهتم بأمرها. فظلت على حالتها مطمورة موزعة بين مكتبات فيينا حاضرة النمسا، وميلانو في البلاد الإيطالية، والقاهرة حاضرة الكنانة، أما تلك التي تعج بها البلاد اليمانية، حصن الزيدية ومعقلها، فعلمها عند علام الغيوب، بعد أن ظلت أزماناً طويلة تحت يد البلى، دون أن تمتد إليها يد النشر والتحقيق. وقد عثرت - فيما عثرت عليه - هذا السفر القيم، وهو نسخة فريدة - كما أظن - مركونة بدار الكتب المصرية العامرة تحت رقم ١٥٦٧ على الكلام، يعود تاريخها إلى سنة إحدى وخمسين وخمسمائة من الهجرة، فعزمت على نشره وإذاعته في الناس، خدمة للفكر وأهله، ومحاولة لسد فراغ طالما تحسست به الثقافة العربية والإسلامية، والله من وراء القصد.

الصاحب بن عبّاد

هو اسماعيل بن عبّاد بن العباس بن عبّاد بن أحمد ابن ادريس الطالقاني. لقب بالصاحب «لأنه كان يصحب ابن العميد، ثم أطلق عليه هذا اللقب لما تولى الوزارة، وبقي علمًا عليه»[١]. ويذكر الصابي «أنه إنما قيل له الصاحب لأنه صحب مؤيد الدولة بن بويه منذ الصبا وسمّاه الصاحب، فاستمر عليه هذا اللقب، واشتهر به، ثم سمي به كل من ولي الوزارة بعده»[٢]. كما لقبه مؤيد الدولة بـ (كافي الكُفاة) وذلك بعد أن «حصل عنده بقدم الخدمة قدم، وأنس منه كفاية وشهامة»[٣]. أما ولادته فكانت سنة ٣٢٦ هـ على راجح الأقوال[٤]، في حين أضحى محل ولادته مثار جدل كبير، ومحط وجهات نظر متباينه[٥]. ويذكر ابن خلكان «أن مولده بأصطخر، وقيل بالطالقان»[٦].

أما والده ـ عبّاد ـ فقد تسنم من المناصب أسناها، والمراتب أعلاها حين تولى الوزارة لركن الدولة[٧]. وإلى هذا يشير أبو بكر الخوارزمي من أن «الصاحب نشأ من الوزارة في حجرها. ودب ودرج من وكرها، ورضع أفاويق درها، وورثها عن أبيه»[٨]. وهو إلى جانب ذلك كان ذا علم غزير، وخلق جم، حتى لقب بالشيخ

---

(١) ابن خلكان: وفيات الأعيان ١/٢٠٧.
(٢) وفيات الأعيان :١/٢٠٧، ياقوت: معجم الأدباء ٢/ ٢٧٥
(٣) معجم الأدباء :٢/٢٧٥.
(٤) وفيات الأعيان :١/٢٠٩، معجم الأدباء ٢/٢٧٤.
(٥) آل ياسين: الصاحب بن عبّاد ص ٢٤ ـ ٢٩.
(٦) وفيات الأعيان :١/٢٠٩.
(٧) معجم الأدباء :٢/٣٧٤.
(٨) الثعالبي: يتيمة الدهر ٣/١٩٠، وفيات الأعيان ١/٢٠٦.

الأمين ويصفه أبو حيان بأنه «كان ديّناً خيّراً، مقدّماً في صناعة الكتابة»[٩]. ولم يقف الأمين عند ذاك حسب وإنما سلك طريق أصحاب الديانات، والمتكلمين، إذ كان ينصر مذهب الأشناني[١٠]. هذا هو الأمين والد الصاحب، فلا عجب أن ينشأ الفتى على سر أبيه، سيما وأنه عني به، وبذل ما في وسعه، وأغناه من التطلع لما في يد غيره، حتى كان يقول «وجميع ما أنفقته من صغري إلى وقتي هذا، من مال أبي وجدي»[١١].

بدأ الصاحب حياته من صغار الكتاب حين خدم أبا الفضل ابن العميد، وهو يومئذ «عين المشرق، ولسان الجبل، وعماد ملك بني بويه، وصدر وزرائهم، وواحد العصر في الكتابة وجميع أدوات الرئاسة وآلات الوزارة»[١٢].

وسرعان ما ترقّت به الحال عندما كتب لمؤيد الدولة وهو يومئذ أمير. ولما توفي ركن الدولة سنة ٣٦٦ هـ تولى مؤيد الدولة الري وأصبهان ونواحيهما، فأستوزر ابن عبّاد لتدبير دولته، وتصريف شئونها، فكان خير صاحب ووزير[١٣].

وهكذا حل الصاحب من قلب مؤيد الدولة محلاً عالياً، ويبدو أن الأمر لم يقف عند هذا الحد بل تجاوز ذلك إلى عضد الدولة نفسه، إذ كان «ينزله المنزلة الكبيرة ويؤثر أن يقضي حقه»[١٤]. ولما توفي مؤيد الدولة سنة ٣٧٣ هـ، سعى الصاحب جاهداً لتولية فخر الدولة للسلطة حين ذهب إلى خراسان وعاذ به وملكه على البلاد بعد أن هرب إلى هناك حينما خسر النزاع الذي قام بينه وبين عضد الدولة[١٥]. وفي عهد فخر الدولة علت منزلته وسطع نجمه حين تولى له الوزارة. فغدت «الأمور تصدر عن أمره، والملك يتدبر برأيه»[١٦]. حتى وافته منيته سنة ٣٨٥ هـ.

(٩) معجم الأدباء : ٢/ ٢٧٤.
(١٠) نفس المصدر ٢/ ٢٧٤.
(١١) نفس المصدر ٢/ ٢٧٤.
(١٢) يتيمة الدهر ٣/ ١٥٤.
(١٣) معجم الأدباء ١/ ٢٧٥ و٥/ ٣٤٩.
(١٤) الروذراوري: ذيل تجارب الأمم ٣/ ١٨.
(١٥) ابن الأثير: الكامل ٩/ ١٠، معجم الأدباء ٢/ ٢٧٥.
(١٦) معجم الأدباء : ٢/ ٢٧٥.

عقيدة الصاحب ومذهبه

ورد الباحثون في عقيدة الصاحب ومذهبه موارد شتى، بعد أن حاول غير واحد منهم جاهداً أن يضمه إلى حزبه، وينسبه إلى نحلته، فقال ابن أبي طي «كان أمامي الرأي، وأخطأ من زعم أنه كان معتزلياً، قال: وشهد الشيخ المفيد بأن الكتاب الذي نسب إلى الصاحب في الإعتزال وضع على لسانه، ونسب إليه وليس هو له»[١٧]. وعدّه محمد تقي المجلسي إمامياً حين قال أنه: «كان من أفقه فقهاء أصحابنا المتقدمين والمتأخرين، وكل ما يذكر من العلم والفضل فهو فوقه»[١٨]. ونسب إلى عبد الجبار القاضي المعتزلي أنه قال بعد وفاة الصاحب «كيف أصلي على هذا الرافضي»[١٩]. وشاركهم في هذا الرأي كثيرون[٢٠]. بينما جعله البعض الآخر شافعياً شيعياً حين قالوا بأنه: «كان ـ مع اعتزاله ـ شافعي المذهب شيعي النحلة»[٢١] وصيره غيرهم حشوياً[٢٢] ويذكر أبو حيان أنه كان «يتشيع لمذهب أبي حنيفة، ومقالة الزيدية»[٢٣] بينما أشار صاحب معاهد التنصيص إلى أنه «كان شيعياً جلداً ـ كآل بويه ـ معتزلياً»[٢٤]وذهبت جماعة إلى أنه كان معتزلياً[٢٥]، بل جعله بعضهم رأساً من رؤوس الإعتزال، ومبشراً بمبادئه، حيث «كان له قوم يسميهم الدعاة يأمرهم بالتردد إلى الأسواق، وتحسين الإعتزال للبقال والعطار والخباز ونحو ذلك»[٢٦]. من هذا يبدو أن هناك اضطراباً واضحاً لدى الباحثين، نتيجة لاضطراب تكاد تكون مجمعة على تشيعه واعتزاله، وليس في ذلك من غرابة إذ لا علاقة للإعتزال بمذهب المرء وعقيدته. فالإعتزال مدرسة تقوم على أصول معروفة، من دان بها غلبه اسمها، ومن خرج عن أحدها انتفى عنه ذلك، وهي تضم الشيعي

(١٧) ابن حجر: لسان الميزان ١/ ٤١٦.
(١٨) الأميني: أعيان الشيعة ١١/ ٣٣٤.
(١٩) لسان الميزان :١/ ٤١٦.
(٢٠) أنظر آل ياسين: الصاحب بن عبّاد ص ٧١.
(٢١) لسان الميزان :١/ ٤١٣.
(٢٢) نفس المصدر : ١/ ٤١٤.
(٢٣) معجم الأدباء :٢/ ٢٧٦.
(٢٤) لسان الميزان :١/ ٤١٦.
(٢٥) معجم الأدباء :٢/ ٢٧٦.
(٢٦) لسان الميزان :١/ ٤١٥.

وغيره. إلا أن الصاحب لم يكن شيعياً إمامياً كما ظن غير واحد من الباحثين[٢٧]، وإنما كان شيعيّاً زيديّاً، تدل على ذلك أمور عدة: منها ما ذكره أبو حيان من أنه كان «يتشيع لمذهب أبي حنيفة ومقالة الزيدية»[٢٨]، وما ذكره العباس أنه «كان شيعياً جلداً كآل بويه»[٢٩] وتستوقفنا هنا كلمة جلد، فهو بلا أدنى شك يعني أنه كان زيدياً لعدم ميل هؤلاء القوم إلى التقيه بل المجاهرة بآرائهم، واللجوء إلى السلاح في شتى الأحوال[٣٠] هذا من ناحية، والمعلوم من حال بني بويه أنهم كانوا على المذهب الزيدي[٣١] من ناحية ثانية. وليس أدل على زيديته من تصدر علماء الإمامية في الرد عليه، وفي مقدمتهم الشيخ المفيد الذي كتب كتاباً باسم (النقض على ابن عبّاد في الإمامة)[٣٢] والمرتضى في كتابه (الإنصاف في الرد على ابن عبّاد)[٣٣] وما كتاب نصرة مذاهب الزيدّية[٣٤] إلا دليل آخر يدعم ما ذهبنا إليه، ويدفع الشكوك المتعلقة بعقيدته، وهو خير أثر لزيديته، ولهذا فكل من قال بخلاف ذلك لم يستند إلى دليل واقعي.

منزلته العلمية

لعل من أهم الأسباب التي ميزت الصاحب عن غيره من أقرانه وبوأته مكانة عالية، تلك القابلية الشخصية الفذة التي كان يتمتع بها، وما انضاف إليها من تتبع حثيث يغني عن بيانه تلك المكتبة المزدهرة التي ضمت معارف ذلك العصر وعلومه، فقد جمع من الكتب ما لم يجمعه أحد غيره، حتى كان يحتاج في نقلها إلى أربعمائة

(٢٧) أنظر آل ياسين: الصاحب بن عبّاد ص ٧١ ـ ٨٤.
(٢٨) التوحيدي: الإمتاع والمؤانسة ٥٥/١.
(٢٩) لسان الميزان: ٤١٦/١.
(٣٠) النوبختي: فرق الشيعة ص ٧٤ ـ ٧٥، الأشعري: مقالات الإسلاميين ٣١٥/٢، ناجي حسن: ثورة زيد بن علي ص١٧٢.
(٣١) ابن الأثير: الكامل ١٦٢/٨.
(٣٢) الطوسي: الفهرست ص١٨٧.
(٣٣) ابن طاووس: اليقين ص١٧٤.
(٣٤) ذكره ابن النديم باسم (الزيديّة) وتابعه ياقوت على قوله. الفهرست ص١٩٤، معجم الأدباء ٢١٥/٢.

بعير[٣٥]. يقول ابن النديم أنه «أوحد زمانه، وفريد عصره، في البلاغة والفصاحة والشعر»[٣٦]. ويذهب صاحب اليتيمة إلى أن الصاحب «قد بلغ من البلاغة ما يعد في السحر ويكاد يدخل حد الإعجاز، وسار كلامه مسير الشمس، ونظم ناحيتي الشرق والغرب»[٣٧]. وإذا أردنا أن نتتبع ما قيل فيه، ونتقصى الأخبار المتضمنة جلال قدره، وسمو نفسه، ورجاحة عقله، لطال بنا المقام. ويغنينا عن كل قول ما ذكره ياقوت بقوله: (الصاحب مع شهرته بالعلوم وأخذه من كل منها بالنصيب الوافر، والحظ الزائد الظاهر، وما أوتيه من الفصاحة، ووفق لحسن السياسة والرجاحة، مستغن عن الوصف، مكتف عن الأخبار عنه والرصف)[٣٨] وهكذا أعد الصاحب نفسه إعداداً خاصاً لتصدر حلقات المناظرة والدرس، بعد أن استكمل أغراضها، فكان له القدح المعلى والنصيب الوافر.

المناظرات العقائدية

إزدهر القرن الرابع الهجري ـ حيث تركزت أغلب الأفكار العقائدية ـ بحلقات المناظرة والدرس لغرض نثر وتثبيت تلك المعتقدات، والذود عنها، وإذاعتها، ودحر الخصوم، وتفنيد حججهم وآرائهم. يقول ابن حزم (ت ٤٥٦ هـ) «إن كثيراً من الناس كتبوا في افتراق الناس في دياناتهم، ومقالاتهم كتباً كثيرة جداً، فبعضها أطال وأسهب، وبعضها حذف وقصّر»[٣٩]. ويشاركه فيما ذهب إليه الشهرستاني (ت ٥٤٨ هـ) الذي قال «وبعد فلما وفقني الله لمطالعة مقالات أهل العلم من أرباب الديانات والملل، وأهل الأهوال والنحل، والوقوف على مصادرها وموارداها، واقتناص أوانسها وشواردها، أردت أن أجمع ذلك في مختصر يحوي جميع ما تدين به المتدينون، وانتحله المنتحلون»[٤٠]. فإذا أضفنا إلى كل ذلك ما جمعه النوبختي (ت ٣١٠ هـ) في فرقه، والأشعري (ت ٣٣٠ هـ) في مقالاته، أدركنا أن

(٣٥) معجم الأدباء:٣١٥/٢.
(٣٦) ابن النديم: الفهرست ص ٢٠٠.
(٣٧) يتيمةالدهر :١٨٩/٣.
(٣٨) معجم الأدباء :٢/ ٢٧٤.
(٣٩) ابن حزم: الفصل في الملل والأهواء والنحل ٢/١.
(٤٠) الشهرستاني: الملل والنحل ١١/١.